

الضحك السريالي *

الخمسينات ، حتى صعايك الشعر المعاصر في آخر نماذجه لدى فاضل العزاوي ، وسليم بركات ، وبعض الشعراء الشباب (في العراق وسوريا وجنوبي لبنان) ... يميل لدى البعض ، الى اتخاذ السريالية اكثر من مناخ للتعبير ، او سديم تدور وتتحرك فيه العمليات الشعرية ... انه يميل الى جعل السريالية ، موقفا ، وطريقة تعامل مع الذات ومع العالم .. وهذا موقف خطر في دوافعه واغترابه ومراميه ، ارجو ، في مداخلتي هذه ، ان اسلط عليه الضوء والاشارة .

● الياس لحود ، في مجموعته « فكاهايات بلباس الميدان » هو واحد من هؤلاء الشعراء الصعايك الجدد .
في اي هواء يقف هذا الشاعر ؟
وعلام يريد لنا الموت ضحكا ؟

عليك ، اولا ، ان تخلع قفازيك ، وثيابك النظيفة ، حين تدخل الى حظيرة هذا الشاعر . فهو ملوث بالعالم .
« ... تسبح الذبابة الحمراء في شورية الغلاف
يسلج الدوري فوق ساعتك » .

وهو قدر ، ايضا (هل انا بحاجة للاستدراك التالي : لا شان للاخلاقيات في كلامي على الشاعر - الذي امزج بينه وبين نماذج - رؤاه وبهوميته ؟)

- قنر ايضا ، وتعديك قذارته :

« ... يهاجمني جوع اطرش ... »

يدفئني اسقط في مجرور المشروع الاخضر

... اخرج من مشروع المجرور الاخضر

امسح اوساخي بمناشف حلاق الافكار

واحني وجهي في انفاس الجبانة ...

يهرب مني عمال التنظيفات

اكذاس الزبالة على كل مفرق ... » .

وليس الياس لحود متفردا في هذا التلوث ، اذ ان هناك موجة من شعر الفثيان ، برزت ، تحت ستار الرقص والشورة ، في انحاء مختلفة من العالم ، في ظروف تاريخية واجتماعية صافطة ، غالبا ما تكون اثر حروب وانكسارات ، او نتيجة استلاب آلي او صناعي (جون اوزبرن وشعراء الفضب في انكلترا) ، خصوصا بعد سنة 1830 . والعصر الصناعي ، حيث برزت ظاهرة الاغتراب او التاليف (Aliénation) . وحيث يكون رفض القيم والمعادن واساليب التعبير السائدة ، هو المميز المشترك لهذه النماذج ، وذلك بافتحام مناطق نافية ، جارحة ،

● لكل رفض سريالي للعالم منطقته الخاص ، كما ان لكل حادث انتحار منطقته الداخلي الخاص ، كما يقول الفاريز (1) . من هنا يقترب شعر الرفض السريالي من حادثه انتحار شخصية ، وهو مرير نفسيا ، او وجوديا ، رغم اعتباره شلودا مرضيا وفق الماييس المنطقية العاقلة . اذ انه دخول في دائرة الجنون والخوف ... وسباحة ضد تيار المألوف ومقاييسه .

انه « برزخ فيه قبر العقل وقبور الاشياء » .. (2) كما يقول النفري ... حيث « الطريق يمر وسط غابات الرموز . وهذه الغابات ليست على وجه الارض ، لتشق فيها سبلنا . انها تحت الارض ، في اعماق كل واحد منا ... » « فيكون المعنى خارجا عن مقصد القائل ، كما في اللاوعي ... » (3)

ولعل اندريه بريتون ، حين اراد ان يخرج في بيانته السريالي الاول سنة 1924 ، من حدود « حراسة المنطق » ، مضنرا ان «العمليات المنطقية لا ترتبط الا بعلم مشاكل ذات اهمية ثانوية » (4) ... كان يطا ارضا عجائبية ، « مستردا حقوق الخيلة » . محركا قوى اللاوعي في الذات الانسانية ، ومثيرا قوى العمق .

ها نحن ، اذن ، داخل عالم تختلط فيه الحواس بالمحسوسات بالوظائف بالالوان بالمفولات ... امام اشتباك هذيان عذب للاشياء والظلال ، او نافورة افكار ملونة ، وتداعيات ورؤى وكوايبس ، لا نهائية التشكل والتناسل .

وليس الشعر العربي بعيدا عن هذا العالم ، رغم اختلاف الدواع واشكال التعبير وغايتها ، منذ الرؤى القرآنية العجيبة ، مرودا بتهويمات الصوفية وشطحاتهم ، وصولا الى السريالية المحدثة . وهو (اي الشعر العربي) ، منذ منطفه التاريخي في بداية

(1) قراءة نقدية لمجموعة (فكاهايات بلباس الميدان) للشاعر الياس لحود ، الصادرة عن دار الاداب نيسان 1974 .

(2) الفاريز : الانتحار : مجلة الفكر المعاصر العدد الثاني السنة الاولى حزيران تموز 74 .

(3) النفري : كتاب (مواقف المواقف) تحقيق الاب بولس نوبا .

(4) الدكتور الاب بولس نوبا اليسوعي : بين حكمة التجربة

وجنون الكلمات : ملحق النهار 74/6/9 .

(5) البيان السريالي الاول : اندريه بريتون 1924 : ترجمة مجلة

شعر 60 العدد 2 حزيران 1969 .

وغير مألوفة في السلوك والتعبير (صدر الدين الماغوط يستعمل في قصائده الدماء والبقي والقمل .. كما كان يستعمل الشاعر القروي ريتشارد هولز نيك مئانه الخنزير السوداء ، اللحم المملح ، الاصوات العشوائية .. الخ) (٥)

الياس لحدود ، اذن ، في هذا الاطار ، ملوث ، وفنر الحال والذاكرة . فهو « يجرجر ذاكرته » ، ويسحب فيها « جثث الحركات » ، تارة ، وتارة « يعبط ذاكرته » او « يتسلق حائط احلامه اللساء » ، وهو دائما ضد هذه الذاكرة .. انه عدوها ومضطهدها ، ويائل عليها ...

ف (من) هي .. هذه الذاكرة ؟

انها ذاكرة « القواميس » .. وهو قائلها ...

ذاكرة التراث المحنط في متحف التاريخ ، لا ذاكرة التواصل الابداعي المتحرك .

« .. فجري يطعن بالالف قواميسا اربعة كبرى

عجري يقتل اربعة

ليفوز بأربع زوجات

فسي عصر الحاء

السراء

البياء ... »

« تلقي القبض على (آل) التعريف

تضرب قاعدة الهمة بالشاقوف

وتهرب في نطق القاموس

فيطعنك الطاوس بخنجر ... » .

وهي ، بالتالي ، ذاكرة القول الساهط ، امام انعدام الفعل الناهض . الموقف هنا ، وان اختلفت الصيغة ، وتوهج الشعاعية ، حاضر في مواقف الشعراء :

عبد الوهاب البياتي : طحننا في مفاهي الشرق حرب الكلمات .

ادونيس : الف اول الحروف .. انقرض .. انقرض .

نزار قباني : هوامش على دفتر النكسة .

محمود درويش : وتكتب صاد .. صاد .. عين .. كاف .

هدير المحيطات فيها ... ولا شيء فيها ...

انه الانقراض على اللغة ، في كونها بنية اجتماعية متخلفة ، والنفاذ عبر ذلك ، للانقراض على مجموع البنى المتخلفة في المجتمع ، بغية تدميرها .

كل ذلك ، في اطار من الرؤى المفككة ، والتناسل العشوائي المختل للصور والحالات والكلمات :

« .. اهزهز جسدي في اثوابي

... انظنط في افكاري » ...

عبر مخيلة دون ضوابط :

« .. هتف الجسد امامي

دخل القلب اليه بخطوات متزنة

هبط الرأس على كتفيه بصوت مظلة

... اللبل بربي في قاوش العقرب غربانا ... الخ

او عبر هذيانيات راقصة :

« .. عقربان يمشيان في العناس في المصانع

الخراب واحة عاشقة زهيرة على الفطار

دوحة المعرض جبهتي الخريطة الجديدة

المدينة الجديدة ... »

(٥) عن مقال لايمان ابو الشعسر (شعر الشباب) : مجلة

الموقف الادبي العدد ٢ حزيران ٧٤ .

او عبر كلمات مجانية :

« ... نعلك بعض (التوست) ..

... فراؤك في صالون الشرف ولحمك في الفوناي

استعدي في جاط الموز

الهورس شو ... الخ ... » .

● عقدة الذنب والسقوط في تعذيب الذات وتحقيرها

وهي سمة بارزة في الديوان ، تكاد تطبع كل قصائده ، وتتخذ اشكالا متفاوتة عبر (كلمات - مفاتيح) ، هي في الواقع ، مفاتيح لحالات نفسية ، يعاني منها الشاعر ، بسبب ضواغط اجتماعية او مواقع طبقية مضطهدة .

الشاعر (جاع) . « ... امضغ حزني وابتلع الذكريات

واشرب كويين من عرق الجبهة » .

لكن جوعه ، لا يشبعه سوى « ضرب الاحذية » :

« .. اشبعني ضرب الاحذية المنصبة

فوق قفائي ووجهي » .

وهو (مذنب) دائما ... لماذا ؟

(مذنب) يستحق :

- الصفع بالحذاء : « .. احزاني العائدة من الحرب الوهمية

تصفعني بحذاء الحرب اليايس » .

- او الرفس : « .. اراقب نفسي على اعين الناس

اعلو .. واهبط ... اهبط .. اهبط

يرفسني القاعدون

تدحرج ذاكري من رصيف ... الى »

- او افسى حالات التعذيب والقتل :

« ... واسأل عن عزلي الجالسين على اعين الارصفة

فيحدودبون ...

واعبر كل زمان المدينة احكم بالموت نفسي

وأني الى المفصلة ... » .

نجد ، استقراء ، ان كلمة (حذاء) هي مفتاح لحالة التحقير الذاتي لدى الشاعر . وهي تتكرر في اكثر من قصيدة ، عبر اكثر من صورة :

« الرجل الرابعة امامي في صحن الشوربة

تقوم على مهل تضربني .. تضربني »

... ادخل في كونشرتو حدائي

... انزح في اشلاء حدائي

... ارحل في حدائي

... اهبط في حدائي ... اسهر في حدائي

... الهت في حدائي .. انام في حدائي .. »

يضاف اليها ، مفتاح تحقير اخر ، هو (الحمار) . فانه ، لا يضاهي الصور (الحدائية) في المجموعة ، الا الصور (الحمارية) .. امثلة :

« .. الصفحة الرابعة من مذكرات حمار

... الصفحة الثانية من مذكرات حمار

... المخلاة جناح البحر - مخلاتك في اسطبل الثورة وشعيرك في است انطخان ، واجمل ما يشغل بالك ان يتنسل منك الشرف لبعض دقائق ... وتزم على نفسك تبعت من جوفك فافية الاجساد وتطلق شنهة تعبر فيها من اجيال المسخ الى ساعات البعث الى ثانية الرفس ... فمك العذب شعير شفتاك مخلتان .. وفخذاك فطره من عهد الرومان ...

انكرت المخلاة الفكرية .. اشبهت الاسطبل شتائم .. اتخمت الايام لبيطا ... الايام الاسطبلية .. وعلى شوك حزيان غمرت حمارة سائسنا ... الخ » .

لماذا ، اذن ، يكون (الحذاء) / و (الحمار) بؤرتي اسقاط فني لدى الشاعر ، لاجساس نفسي باللونية والصالاة ؟ لماذا الحذاء ، وليس قفاز اليد او القبعة ، مثلا ؟ ولماذا الحمار ، وليس الاسد ؟ هل لان الحذاء دوني ، سفلي ، في طبقات اللباس ؟ وان الحمار ضعيف محافظ على كلاسيكياته ؟ . والشاعر لا يتواجه مع الاسد لانه مصدوم بقوته الجسدية ؟ هل نحن هنا امام ترهات وسفاسف شعرية ؟ ام نحن امام الشعر ؟

هل ان سخرية الشاعر ، هنا ، سخرية مسطحة ولا مسؤولة ، ام انها سخرية مرة وعميقة وقاطعة ؟ وهل تراني احس هنا ، بمثل احساسي العميق والاشد ايفالا في النفس البشرية ، امام مفارقة صلاح عبد الصبور ، حيث يقول : « ... هذا زمن الحق الضائع لا يعرف فيه مقتول من قاتله ومنى قلبه ورؤوس الناس على جثث الحيوانات ورؤوس الحيوانات على جثث الناس فتحسس رأسك فتحس رأسك .. » .

هل ... وهل ... ؟ وليعدرنني الصديق الشاعر لسو ابقيت اسلتي هنا معلقة .

● إعادة تركيب العالم ... بتشويبه

صور التشويه في المجموعة ، كثيرة ومتلاحقة : فالزمن اعرج ، والاقف واجف ، حتى (الفربة) ... وهي الدلالات الفيوية الشعرية المألوفة ، برومانيتها الانسحابية ، او بوجوديتها الحساسة ، حتى الفربة ينبت لها في كلام الشاعر (مصران) ... ويهر الناس في هذا المصران :

« ... نبصق فوق الحائط

نهر الواحد تلو الاخر

في مصران الفربة ... » .

هنا حالة من حالات التشويه ، تصل الى حد المسخ .

هل استطيع ان اشبه هذه الحالات ، بحالات كافكا السوداوية ، حيث يتحول الانسان الى صرصار ؟ هل استطيع ؟

هل وصل صديقي الشاعر الى تلك المرحلة من مفارقات الموقف او الشخصية ، التي يستطيع ان يلتقطها ، ثم يتعالى عليها ويتجاوزها ، بعد ان يعدي الحالة الى المتلقي ... ؟

انني اشعر لدى قراءة كافكا بحالة من الرعب او السوداوية تلبسني ، ولا استطيع الفكاه منها ...

فهل استطيع الياس لعود ؟ ... اشك ...

ان ظاهرة رفض الخارج ، بتشويبه ، او الخروج على المتألف منه ، تبرز في نموذج طريف للشاعر ، من قصيدته : « اختراق منع التجول » .

« ... تمثال الشهداء يتبول على الاعشاب العمياء وعلى الاسماء المقترية .

... بين رأسي واكياس الرمل كلب يرفع فخذة .. » .

حالة الشاعر ، هنا ، او صورته ، تبدو وكأنها منقولة نقلًا حيا عن حالة الشاعر اللداني الفرنسي (جان بيير دوبويه) حين يبال

بالفعل ، لا بالقول ، على شعلة تمثال يرمز الى ضحايا الحرب في باريس ، فأطافها ... « واذا كانت المفارقة سهلة يومذاك ، بين ما كان يفعله لينين ورفاقه في زوربخ في نفس الوقت ، اذ كانوا يخطون للثورة ... والمنطقة العامة تعاني الى حد كبير من الاحساس ذاته بالاضطهاد والقهر ، وبين ما كان يفعله الشاعر (جان بيير دوبويه) » (٦) ... فان المفارقة تبقى حاضرة وجارحة ، بين نموذج الشاعر لعود ، وبين ما يفعله ابطال عملية (كريات شمونة) او (معالوت) الفلسطينيين ، او ما فعله الشهيد (حسن الحايك) شهيد حركة عمال التبغ في جنوبي لبنان ، او العامل الشهيد (يوسف العطار) ضحية تحريك عمال معمل فندور في لبنان ...

اذ انه ، من المفهوم جدا ان الدوافع الموضوعية والذاتية للشاعر ، اي الدوافع التاريخية - الاجتماعية - النفسية - الذهنية / هي التي تشكل مواقفه واحاسيسه واشكال تعبيره وسلوكه . لكن المهم هو ماهية هذا الموقف (من ضمن اطار الشعر) - ماهية هذا الاحساس ...

هل هو انسحابي .. اغترابي ؟

ام انه متفحم .. ناهض مع حركة المجتمع والتاريخ !

اذ ، يبدو ان الشاعر الياس لعود ، ما زال مسكونا بغيوم حزيرية ، مصدوما بهزائم نظامية ... وهو يشعر انه (انسان ممنوع) .. ممنوع في الليل والنهار « ... تخلق ممنوعات ربك لا يعرفها

زعموا ان ممنوعات اخلفت حتى انقسمت حتى ابتدأت حربا حتى انتصرت في احلام اليقظة ... ثم انهزمت فخلينا ... وخجلنا ... » .

وهو معذب بالاشواق المتنوعة ، يساكن وطنا يراه عاريا جائعا ممزقا ...

هذا هو الاحساس الذاتي لالياس لعود . مع ان الرصد الواعي لحركة التاريخ العربي لا يصدم ويحبط ، بمقدار ما يتحدر ويشور . مع التحركات الشعبية الثائرة .. على امتداد الرقعة العربية . هناك ممنوعات لا شك ، لكن ، هناك خرق لمنع التجول ، ايضا . وان التاريخ العربي ليس بالطبع سلسلة انتصارات ، بمقدار ما هو توالي هزائم ، لكن ، على امتداد هذه الرقعة السوداء ، ثمة نقاط مضيئة تبرز في العتمة ، وتمكن رؤيتها اذا غير الانسان زاوية الرؤية ...

هنا اصل الى سؤال اعتبره محرك هذه الدراسة :

ماذا وراء كل هذا الضحك والبكاء والحزن والقلق والمسخ والرؤى الآسرة المفجعة المفرفة ؟ في آن ؟

ما هو الموقف ؟ اذ يمكنك ان تسخر من اية قيمة ... من اي اله او اي انسان ، دون موقف ...

اعتقد ان الشاعر لم يصل بعد الى وضوح الرؤية ، وان كان يتلمس اطرائها وبشائرها .

لكنه مع كل ذلك ، طريف ، ومتفرد .

بيروت

(٦) المصدر السابق .

صدر حديثا

فظاهيات يلباس الميران

للشاعر

الياس لعود

منشورات دار الآداب